الفصل الأول

الرواية المضادة .. وشيطنة الإسلام!

- ١ -

لم يعد الصراع في عملية إقصاء الإسلام أو استئصاله قاصرًا على المجالات المباشرة في ميادين القتال أو السياسة، ولكنه امتد إلى الإعلام والتعليم والفنون المختلفة، وذلك من خلال تقديم الإسلام في صورة هامشية مشوشة، أو تشويه صورته، بإلصاق التهم والسلبيات المختلفة بتشريعاته ورموزه من الصحابة - رضوان الله عليهم - والتابعين، والقادة والعلماء الذين جاءوا من بعدهم.. والاحتجاج بسلوك بعض المسلمين دليلًا على ذلك.

وقد كانت الرواية من الفنون المهمة في الترويج لصورة الإسلام المشوّهة والمشوّشة، بحكم أنها أقرب إلى جمهور القرّاء، وتحمل عنصر التشويق الذي يغري بمتابعة القراءة وتتبع الأحداث الروائية، وصراع الشخصيات للوصول إلى النهاية التي يسعى وراءها المتابع. لذا كانت الرواية (المكتوبة والمصورة سينمائيًا ودراميًا) في مقدمة الفنون التي اعتمد عليها خصوم الإسلام في بث أفكارهم المعادية ورؤاهم المضادة، فرأينا في العقود الأخيرة أعدادًا كثيرة من الأعمال السردية والدرامية والسينمائية التي جُندت لهذا الغرض، وخاصة بعد ما قيل إننا نعيش عصر الرواية أو إن الرواية صارت فن العربية الأول، بعد إزاحة الشعر عن عرشه.

ولا ريب أن الرواية المضادة للفكرة الإسلامية تحظى برعاية القوى المعادية أو المخاصمة للإسلام، فدور النشر والصحف والجوائز وأجهزة الإعلام والدعاية من فضائيات وإذاعات ومواقع على الشبكة الضوئية،

وأجهزة الثقافة في معظم العواصم العربية، ترعى كل عمل يدخل معترك التشويه والتشهير، وتهتم به اهتمامًا مبالغًا فيه، ولو كان دعاية فجة وسردًا بائسًا لا روح فيه.. بل إن بعض من يعدون أنفسهم نقادًا يحثون الكتّاب وخاصة الشباب على تضمين أعمالهم ما يفيد التجديف في حق الذات الإلهية والعقيدة، مع مشاهد الجنس والإباحية، والألفاظ الهابطة.. وتحت ذريعة محاربة التطرف والإرهاب والظلامية فكل شيء مباح في تقديم الأعمال السردية ولو كانت ضعيفة فنيًا أو غير مقنعة أدبيًا.

السياق الفني

وقد ارتبط مصطلح الرواية المضادة بسياق فني يخرج بالرواية من إطار التقاليد الفنية المتعارف عليها، والسياق المعتاد لدى الروائيين، والأفكار والموضوعات التي درج الكتّاب على تناولها، وهناك من يرى أن الرواية المضادة تلك التي تقبل نصوصها أكثر من تأويل وتفسير، وهنالك من يستدعي «جاك دريدا» الذي يستشهد في «الكتابة والاختلاف بقول فلوبير: «بلاستيكية الأسلوب ليست بحجم الفكرة الكاملة نفسها.. عندنا أشياء كثيرة ولكن ليس ثمة ما يكفي من الأشكال». ويشير «ميلان كونديرا» إلى أن الجزء الأكبر من الإنتاج الروائي الحالي مكوّن من روايات لا تنتمي إلى تاريخ الرواية (احتضارات ذات طابع روائي).

بيد أن بعض النقاد يرى أن الرواية المضادة تعتمد على التشتيتَ، والكتابة السريالية، وتحطيم الحدث، بل العمل على إلغائه، وعدم تحديد هويات الشخصيات، والإلحاح على تنكير سماتهم وأماكن وجودهم وإقامتهم، والانغماس في جوانية اللغة بدل تطوير الوقائع وجعلها متسلسلة، وتعويض صور الحب الرومانتيكي الحالم أو الغزل الخفيف

أو الغرام المسروق أو الغمز والإيماء بصور جنسية مفضوحة وشاذة (من مقال لخليل صويلح).

الإرهاب الإسلامي

وتبدو فكرة الإلحاح على الإرهاب الإسلامي موظفة بعناية لتحقيق هدف الإقصاء أو الاستئصال، بينما الممارسة الحقيقية للإرهاب الدموي والقتل المجاني الذي تقوم به دول أو جهات أو جماعات أو أفراد من غير المسلمين مسألة عادية، لا يشار إليها بحسبانها إرهابًا بل تدرج في سياق إخباري عادي بعيد عن تهمة الإرهاب أو التطرف أو الظلامية.

أيضًا فإن الإرهاب المصنوع بمعرفة أجهزة المخابرات والأمن في بعض الدول الكبرى، والدول التابعة لها، ينسب إلى الإسلام ويتم الإلحاح عليه صباح مساء لشيطنته وتجريمه، بينما تقول الوقائع على الأرض غير ذلك.

هناك أمثلة فظيعة للعصابات والجماعات الإرهابية في أوربا وأميركا، لا يتحدث عنها الإعلام الغربي، ولا الإعلام العربي التابع، إلا في سياق الأخبار العادية، ومنها:

منظمة (الاعتداء) في بروكسل (بلجيكا) لسحل الغرباء والمهاجرين، وفى فرنسا منظمات «القوميين الأوروبيين» و«القوميين الثوريين» و«الطريق الثالث»، وتأسست في النمسا حركة «الولاء للشعب»، يتزعمها كبير المنظّرين لتيارات النازيين الجدد هناك «جوتفريد كاسيل».

وفى بريطانيا ظهرت حركة «القتال ١٨»، ومنظمة «الألوية الحمراء»، ومنظمات أخرى استهدفت البنوك والمؤسسات والشخصيات السياسية والغرباء بكل أشكال الاعتداء والتصفية الجسدية، وقد تعرضت فتاة

مصرية اسمها «مريم» في أوائل مارس ٢٠١٨م للقتل، بعد سحلها من جانب عشر فتيات بريطانيات أمام المارة، في مدينة توتنجهام البريطانية، وجرى إضرام النار في مسجد «قوجة سنان» بالعاصمة الألمانية برلين، دون أن ينتفض البريطانيون لمقتل الفتاة أو يهتم المستشفى البريطاني بعلاجها حتى قضت نحبها بسب الإهمال، كما لم ينتفض الألمان لحرق المسجد، بل إن وزير داخلية ألمانيا هورست زيهوفر، لم يخجل من القول في مقابلة مع صحيفة «بيلد» المحلية، «إن الإسلام لا ينتمي لألمانيا»، مضيفًا أن «ألمانيا تتميز بالمسيحية والكنائس وأعياد الفصح والقيامة»، وإن كانت أنجيلا ميركل حاولت أن تصحح كلام الوزير وتخفّف من وقعه على المسلمين بالقول: «استنادًا إلى دستورنا ونظامنا القانوني، فإن دين المسلمين الذين يعيشون في ألمانيا، أصبح جزءا منها». وفي شهر مارس ٢٠١٨م، عبرت حملة كراهية عن نفسها لترهيب المسلمين وإيذائهم في بريطانيا تحت عنوان رسائل «يوم العقاب».. تم إرسالها إلى مسلمين في عدة مناطق من بينها العاصمة لندن، ومدن برادفورد، وكرديف، وشيفلد، وليستر، ومقاطعة يوركشاير ومنطقة «ميدلاندز». وتحرض الرسائل المروعة على إلحاق الأذى بالمسلمين يوم ٣ إبريل ٢٠١٨، انتقامًا مما وصفوه بـ «غزو المسلمين» لأوربا، ووضعت إحدى الرسائل «نظام نقاط» للتحريض على إيذاء المسلمين، منها أن من يقوم باعتداء لفظي سيحصل على ١٠ نقاط، ومن ينزع حجاب امرأة يحصل على ٢٥ نقطة، ومن يلقى مادة حارقة على وجه مسلم سيحصل على ٥٠ نقطة، ومن يفجر أو يحرق مسجدًا سيحصل على ألف نقطة.(هؤلاء لا يوصفون بالإرهاب أبدًا!)

قاتل المسلمين

لم تعلن جهة مسؤوليتها عن الرسائل، إلا أن الرسائل وضع عليها خنجر ومعه حرفي «إم إس» أي «مسلم سلاير» أو «قاتل المسلمين» وهو ما يرجح أنها مرتبطة بتلك الجماعة العنصرية المتطرفة التي تستهدف المسلمين والمساجد في بريطانيا وأمريكا، وشنّت تلك الجماعة العام الماضي هجمات على مسلمي البلدين.

ومالنا نذهب بعيدًا، وقد قامت روسيا في زمن الاتحاد السوفياتي بقتل عشرات الآلاف من المسلمين في أفغانستان، ولم تتورع عن قصفهم بالغازات السامة التي أطلق عليها الإعلام الدولي حينئذ المطر الأصفر، وتسأل عن سبب ذلك العدوان الاستعماري الغشوم فتجد أنه دفاع عن حزب خلق الشيوعي الذي انقلب على الحكم في كابول، لاستئصال الإسلام وإحلال الشيوعية مكانه، ومع ذلك يعدون هذا العدوان الاستعماري الذي يتزيا بزي الشيوعية تقدمية وليس إرهابًا أو قتلًا أو استباحة للمسلمين، فالمسلمون في هذا المفهوم لا ثمن لهم ولا قيمة!

ثم جاء الأميركان بعد حاث برجي التجارة في نيويورك (الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١) الذي لم يمت فيه يهودي واحد؛ لمعاقبة الشعب الأفغاني المسلم، وليس معاقبة الجاني المفترض أنه قام بهذا التفجير وهو تنظيم القاعدة، وتم قتل قرابة نصف مليون مسلم أفغاني دون دمعة واحدة يذرفها العالم الاستعماري في الغرب، وبدلًا من إجراء تحقيق دولي عادل لمعرفة الجاني في الحادث عوقب الشعب الأفغاني المسلم كله بقتل قرابة نصف مليون مسلم، فضلًا عن هدم البيوت والمستشفيات والمساجد والمدارس التي يسكنها أو يستخدمها مسلمون أبرياء، لا

يسمى هذا إرهابًا، بل إن ما يدعو للمفارقة أنه يسمى مكافحة للإرهاب!

وقامت الولايات المتحدة مع حلفائها الاستعماريين، بشن حرب ضارية على المسلمين في العراق، تحت دعوى وجود أسلحة نووية في أرض الرافدين، مع أنها فتشت كل مكان هناك، وشمل التفتيش غرف نوم من كان يحكم العراق، وأسفرت الحرب عن قتل أكثر من مليون عراقي بريء، وما زال القتل جاريًا حتى اليوم بأيدي هؤلاء أو وكلائهم العرب وغير العرب!

هذا القتل البشع لا يعده الغرب ووكلاؤه من بني جلدتنا إرهابًا أو عنفًا أو تطرفًا، لسبب بسيط، وهو أن الضحايا مسلمون، والمسلم- كما سبقت الإشارة- لا ثمن له ولا قيمة في سوق النخاسة الدولي الذي يحكم العالم، الأسوأ من ذلك أن يصر نفر من بني جلدتنا يفترض أنهم مثقفون، وليسوا أبواقًا في أجهزة الدعاية الرسمية، أن المسلمين إرهابيون بالطبيعة، متطرفون بالسليقة، ظلاميون بالفطرة!!

المسلمون والوثنيون

إن المسلمين على امتداد تاريخهم منذ غزوة بدر مرورًا بالفتوحات حتى حروب التحرير من قبضة الاحتلال في العصر الحديث، لم يقتلوا عشر معشار من قتلهم الغربيون أو الوثنيون في معركة صغيرة واحدة جرت في ركن من أركان العالم.

لقد قتل الزعيم الصيني الشيوعي ماو تسي تونج ٧٩ مليون شخص، وقتل جوزيف ستالين ٥٠ مليون شخص، وقتل أدولف هتلر ٤٠ مليون شخص، وقتل ليو بولد الثاني ملك بلجيكا ١٥ مليون شخص من شعب الكونغو، وكان يقوم بتعذيب الأفارقة العبيد بقطع الأيدي، وتشويه الأعضاء التناسلية، واغتصاب الأم والأخت، وقد مُنح العديد

من الأوسمة في مقدمتها وسام الصليب الأكبر لجوقة الشرف تقديرًا لجرائمه الدامية، وقتل بول بوت في كمبوديا ٣ ملايين شخص.

إن أشهر زعيم بريطاني في العصر الحديث ونستون تشرشل الذي فتن به المثقفون العرب لموقفه في الحرب العالمية الثانية، ومواجهته لأدولف هتلر، وتجميع الحلفاء لهزيمته والقضاء على قوة ألمانيا النازية، له سجل حافل في القتل والعنصرية، فقد منع الطعام حين كان وزيرًا للمستعمرات عن ٤ ملايين من شعب البنغال في الهند حتى ماتوا جوعًا، وأوقف وصول شحنات القمح من أمريكا وكندا إليهم، وتمنى أن تندلع الحرب الأهلية في الهند ليموت الهنود جميعا، كما أحرق القرى والمزارع ودمّر المنازل وردم الآبار في أفغانستان حتى انهارت الدولة، واستخدم الغازات السامة في شمال العراق وكردستان وأعلن عن سعادته بذلك؛ لأنه نشر رعبًا هائلًا بين القبائل المتوحشة كما سماها، وقد أمر بفتح النيران قرب نهاية الحرب العالمية الثانية على مظاهرة كبيرة ضمّت ٢٠٠ ألف مواطن في اليونان؛ فقتل منهم ٢٨ مواطنًا في أثينا، وكانت المظاهرة تضم مقاتلي الجيش الشعبي والميليشيات اليونانية التي حاربت النازية.

ولم يخافت تشرشل بتعصبه وعنصريته تجاه فلسطين وأهلها، فقد أيّد وعد بلفور وقيام الكيان الصهيوني ودعمه، وبارك طرد الفلسطينيين من ديارهم، مثلما أيّد استئصال الهنود الحمر في أمريكا والأبوريجين السود في أستراليا، معللًا ذلك بأن الجنس المتطور الأذكى والأقوى يجب أن يسود ويحكم، كما حارب الوطنيين في إيرلندا، ووصفهم بأنهم قوم شديدو الغرابة؛ لأنهم رفضوا أن يكونوا بريطانيين! وكان أول من أرسل مجموعات من البلطجية المسلحين لتأديبهم، ونعت البلطجية بأنهم مواطنون وضباط شجعان!

وله تاريخ دامٍ مستفيض صنعه مباشرة عن طريق القوات الإنجليزية المحاربة أو عن طَريق الوكلاء بالانقلابات والمؤامرات، والكتب التي تشير إلى جرائمه وعنصريته كثيرة.

تجارة العبيد

أما جرائم الأنجلو سكسون في أفريقية فحدّث ولا حرج!

لقد نقلوا ضمن تجارة العبيد في القرن السابع عشر، قرابة ٦٠ مليون شخص، قُتِل منهم نحو ٤٠ مليونًا أثناء نقلهم إلى أميركا في سفن أشبه بالسجون، بسبب المرض والتعذيب والغرق والانتحار، يقول «جون نيوتن»، أحد قباطنة سفن العبيد: «كنا نصفِّد العبيد من أقدامهم بسلسلة واحدة، ونحشرهم على رفوف كأنها التوابيت في قاع السفينة مع الفئران والجرذان، التي كانت تمتص جراحهم، وكنا في كل صباح نستيقظ لنجد الميت والحى مصفدين معًا في قيد واحد».

ولأميركا تحديدًا باع طويل في القتل والإبادة، وهى ظاهرة مستمرة حتى الآن. وفى كتابه «أمريكا والإبادات الجماعية» يقول منير العكش، الباحث في علوم الإنسانيات: إن الإمبراطورية الأمريكية قامت على الدماء، وبُنيت على جماجم البشر، فقد أبادت هذه الإمبراطورية الدموية ١١٢ مليون إنسان، بينهم ١٨.٥ مليون هندي، ينتمون إلى أكثر من ٤٠٠ أمة وشعب، ودمّرت قراهم ومدنهم، وقد وصفت أمريكا هذه الإبادات بأنها «أضرار هامشية لنشر الحضارة»!!، وخاضت- في إبادة كل هؤلاء البشر وفق المعلوم والموثق- ٩٣ حربًا جرثومية شاملة، وتفصيل هذه الحروب أوردها الكاتب الأمريكي «هنري دوبينز»، في كتابه «أرقامهم التي هزلت»، في الجزء الخاص بأنواع الحروب الجرثومية التي أُبيد

بها الهنود الحمر: ٤١ حربًا بالجدري، ٤ بالطاعون، ١٧ بالحصبة، ١٠ بالأنفلونزا، ٢٥ بالسل والدفتيريا والتيفوس والكوليرا!

إن الولايات المتحدة الأمريكية في توحشها وعدوانيتها تمارس إرهابًا غير مسبوق في التاريخ، وفي ظلها تقوم الدول الاستعمارية بممارسة الإرهاب الدموي الذي يستهدف المدنيين العزّل، كما يفعل الروس اليوم في سورية بتنفيذ سياسة الأرض المحروقة، التي نفذوها من قبل في الشيشان.

ومع الوحشية الأميركية المدججة بأحدث أسلحة الدمار الهائل، فإنها لم تستطع أن تنتصر في أفغانستان بعد سبعة عشر عاما من الاحتلال والقتل، بل أخذت تعترف بهزيمتها ضمنيًا وقبول المصالحة بين جماعة طالبان والحكومة الأفغانية التابعة لواشنطن.

إن إصرار الرئيس الأميركي دونالد ترامب على منع رعايا سبع دول إسلامية من دخول الأراضي الأميركية، هو أحد تجليات الإرهاب الاستعماري الذي لا يتحدث عنه كتّاب السلطة في بلادنا العربية ومفكروها الذين جعلوا شغلهم الشاغل شيطنة الإسلام وتجريمه ووصف الإرهاب بالإسلامي.

أما الإرهاب الصهيوني في فلسطين المحتلة وخارجها فالحديث عنه يحتاج إلى مجلدات، مذ بدأت العصابات الإرهابية تقتل الفلسطينيين وتطاردهم وترغم الأحياء منهم على الرحيل من ديارهم وتحولهم إلى لاجئين يعيشون تحت أسوأ الظروف الإنسانية وتقيم دولة يهودية على أشلائهم، ناهيك عن الاغتيالات والمؤامرات التي لا تتوقف حتى اليوم ضد الفلسطينيين والعرب جميعًا.

- ٢ -
خدمة الغرب

إن موقف الكتّاب والمفكرين العرب الذين يتصدرون المشهد الثقافي المعاصر وإصرارهم على شيطنة الإسلام ووصمه بالإرهاب بعد أن كانوا يصفون به بعض الشخصيات أو الجماعات، واستخدامهم لمصطلح الإرهاب الإسلامي بمعناه الغربي دون تحفظات، لهو إهانة للإسلام، وخدمة رخيصة للغرب واليهود حتى لو لم يقصدوا.

وإن المرء ليعجب من إصرارهم على ازدراء دينهم ومواطنيهم، في الوقت الذي لا يشيرون فيه بكلمة إلى جرائم غير المسلمين، بل يذهبون إلى مدى أبعد حين يجعلون النموذج الغربي الوثني الدموي هو الغاية التي ينبغي أن تسعى إليها أمتنا وتتماهى فيه، بل يسوّغون جرائم غير المسلمين واحتلالهم لأوطان إسلامية بحجة دعم أتباعهم من أعداء الإسلام والأمة!

إن هذا الخلل الفكري أو الاضطراب المجافي للعقل والمنطق أو تصوير الإسلام بالدين الإرهابي، يراد فرضه على أمتنا فرضًا، ويُطلب منا أن نتقبله، وننصاع له لأن نفرًا من المسلمين اتهمتهم دول معينة بأنهم إرهابيون، مع أن كثيرًا من التقارير تشير إلى أن أجهزة المخابرات في هذه الدول هي التي تقوم بصناعة من تسميهم إرهابيين سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وفي سياق التلاسن بين الروس والغرب،

فإن روسيا شبّهت بريطانيا بـ «قطاع الطرق».. والغرب اتهم الروس بمساعدة طالبان وداعش (الأهرام ٢٥/ ٣/ ٢٠١٨م)

وقد اعترف بعض المسؤولين العرب أخيرًا بأن الغرب طلب من بعض الحكومات العربية تشجيع بعض المذاهب والاتجاهات الإسلامية التي تبدو حسب الوصف الغربي متشددة أو متطرفة؛ مما يؤكد على أن الغرب له يد طولى في صناعة الإرهاب الإسلامي الذي يزعمون!

لقد آثرت أن أسجّل في السطور السابقة نماذج للإرهاب الحقيقي والمزمن لدى أصحاب الثقافة الوثنية المعادية للإنسانية، ليتذكر مثقفو السلطة في البلاد العربية، أن للأمر وجوهًا أخرى، وأن صناع الإرهاب ليسوا من المسلمين دائمًا، ولعلهم يحاولون إنصاف أمتهم المستباحة حين تستيقظ ضمائرهم، وينكشف الغطاء عن عيونهم وعقولهم.

حفاوة غريبة

وسنرى في السطور التالية نموذجًا للحفاوة الغريبة بالروايات التي تشيطن الإسلام، ولا تخافت باستخدام مصطلح الإرهاب الإسلامي، دون أن يهتز لها جفن أمام الإرهاب الاستعماري أو الصهيوني أو الوثني الذي يعصف بالإسلام والمسلمين، ولا تشير إليه بحرف أو بنت شفة!

على مدى أربعة أسابيع كتب الدكتور جابر عصفور وزير الثقافة الأسبق، في الأهرام - أكبر الصحف المصرية - أربع مقالات طويلة، احتفاء برواية تشيطن الإسلام والمسلمين في حرب أفغانستان، دون أن تذكر بكلمة الجريمة الأكبر التي اقترفها الشيوعيون السوفيات وعملاؤهم في حزبي «خلق» و«البرشام» الشيوعيين الأفغانيين ضد الشعب الأفغاني المسالم المسلم! أو الجريمة النكراء التي تلت خروج السوفيات وانتصار

المقاومة الأفغانية، وتمثلت في الحرب الوحشية الضارية التي شنتها الولايات المتحدة والتحالف الغربي المساند لها، ضد أفغانستان المسلمة!

استغرقت المقالات الأربع شهرًا كاملًا من ١٠/ ٢/ ٢٠١٨ إلى ٩/ ٣/ ٢٠١٨م، أردفها عصفور بسلسلة أخرى حول رواية مشابهة تنسف الحقائق المتعلقة بموضوعها، وتحوّل الضحية إلى مجرم، ولم توجّه إلى الجاني الحقيقي كلمة استهجان.

الرواية الأولى اسمها «أساطير رجل الثلاثاء» كتبها صبحى موسى وصدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، سنة ٢٠١٣م.

ويقدم عصفور لمقالاته عن الرواية بالإشارة إلى الجيش السوفياتي الذى (اضطرّ) إلى احتلال أفغانستان؛ دعمًا لحليفه الشيوعي الأفغاني حفيظ الله أمين، رئيس حزب الشعب الديمقراطي (خلق) الذى قام بالانقلاب على نظام الحكم القديم، وأصبح رئيسًا لدولة أفغانستان التي سرعان ما جاءها الدعم السوفياتي؛ تأييدًا للنظام الماركسي الذى بدا (واعدًا) للمتحمسين له من أبناء الأفغان!

وفي هذه الفقرة أكثر من لغم لا يليق بمن يحرصون على أوطانهم، ولا أقول دينهم الذي قد يكون ذكره مزعجًا، وأول هذه الألغام اضطرار السوفيات لاحتلال أفغانستان المسلمة وفرض إرادتهم وعقيدتهم على شعبها المسلم، هل هناك ما يبرر لدولة احتلال دولة أخرى، هل يجيز ذلك القانون الدولي، وهل تسمح به الكرامة الوطنية، وهل تبيحه العقيدة الإسلامية؟ كنت أتوقع أن يستنكر جابر عصفور الاحتلال السوفياتي لأفغانستان، لا أن يسوّغه ويجد له سببًا في الاضطرار الذي لا يراه أي إنسان سليم الفطرة على ظهر الأرض!

هل قيام حزب خلق الشيوعي بالانقلاب على حكومة البلاد يسوّغ للسوفيات أن يدخلوا كابول بالطائرات والدبابات والمدافع والجيش الأحمر ويجعلهم مضطرين لذلك؟

ثم ما معني أن يكون النظام الماركسي واعدًا؟ وهل الماركسية صارت بديلًا عن الإسلام؟ وهل الشعب الأفغاني المسلم الذي أسهم في بناء الحضارة الإسلامية بعلمائه وفقهائه ومحدثيه وأدبائه وشعرائه ومؤلفيه في شتّى فروع المعرفة على مدى قرون يجب أن يصير مرتهنًا للماركسية (الواعدة) في حزب خلق، أو منافسه حزب البرشام؟

ثم إن الشيوعيين الأفغان كانوا مثالًا للتناحر والخلافات والاغتيالات والغدر مع بعضهم بعضًا، فضلًا عن إجرامهم في عملية استئصال الإسلام وقتل العلماء والفقهاء والمسلمين، وملء السجون والمعتقلات بالآلاف من أبناء الشعب الأفغاني.

لم يذكر جابر عصفور شيئًا عما قام به الشيوعيون الأفغان من جرائم ضد شعبهم، وبالطبع لم يشر إلى ما قامت به الدبابات والجيش الأحمر من مذابح ومجازر، ولا ما قام به الطيران الشيوعي السوفياتي من قصف المدن القرى والمزارع بالغاز المحرم الذي كان يسمّيه الإعلام الدولي بالمطر الأصفر!

الموت الشيوعي

ولم يذكر الدكتور عصفور شيئًا عن واجب الشعب الأفغاني في مقاومة الموت الشيوعي السافر، ولا عن ضرورة الجهاد ضده وطرده من البلاد الإسلامية التي يراد مركستها أو فرض الشيوعية الكافرة عليها، من خلال تشكيلات حزبية عميلة دموية تسلطت بالانقلاب على بلد مسلم

فقير في أمس الحاجة لبناء نفسه وإعزازها في مجالات التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية والتقدم في الزراعة والصناعة والإدارة وغير ذلك، ولكنه يخبرنا بأنه كان من الطبيعي أن تبرز شخصيات عربية تقوم بأدوار أساسية في هذه الحرب، ابتداء من «أسامة بن لادن» السعودي الجنسية، مرورًا بـ «عبد الله عزام» الفلسطيني الأصل، وانتهاء بالدكتور «أيمن الظواهري» المصري من تنظيم الجهاد الإسلامي في مصر، ولم يشرح لنا : لماذا من الطبيعي أن تبرز هذه الأسماء، ولماذا تشارك في هذه الحرب؟ وكأن هذه الأسماء مجموعة من الهواة أو المرتزقة الأوربيين الذين يشبهون البلاك ووتر ، مهمتهم الذهاب إلى القتال دون مسوّغ ديني أو وطني أو خلقي، ليسفكوا الدماء مقابل ما يدفعه لهم أصحاب المصلحة في هذه الحرب غير المشروعة.

ومن المفارقات أن أمثال الدكتور عصفور يحتفي بشخصية شيوعية لها باع طويل في محاربة الولايات المتحدة والحكومات الموالية لها في أميركا اللاتينية، وهو أرنستو شي جيفارا الذي يعدّونه بطلًا للتحرير في جمهوريات الموز، ويقدمونه مناضلًا وقدوة للأحرار في جميع أنحاء العالم، ولا يتهمونه بالإرهاب أو التطرف الشيوعي، مع أنه يفعل مثل ما يفعله الإرهابيون المسلمون كما يسمّونهم!

الأخطر من ذلك هو تركيز عصفور على انتقاد فكرة الجهاد، وكأنه يريد أن يدين الإسلام والمسلمين؛ لأن الله شرع لهم الجهاد ليردوا المعتدين الغزاة، ويؤمّنوا بلادهم وحدودهم، فينسب الفكرة إلى ما يسمّيه تنظيم الجهاد الإسلامي في مصر، الذى يقوم على معتقدات سلفية جهادية تعتقد كُفر الدول والأنظمة والمؤسسات والأحزاب التي تقبل الحكم

بغير ما أنزل الله – عز وجل – أو تحتكم إلى غير شريعة الله، أو تُلزم الناس بالأنظمة المناقضة للإسلام أو تدعو إليها، مثل الشيوعية أو الديمقراطية أو الاشتراكية، وما أشبه ذلك من أنواع الجاهلية المعاصرة، وهذا العقل الذي يؤمن باتباع منهج الكتاب والسنة على طريقة السلف الصالح، سواء في أبواب الاعتقادات أو الأحكام، كما نقلها الأئمة الأعلام، والعلماء الثقات من أمثال ابن القيم الجوزية وابن تيمية وغيرهما، وقد اتخذت الجماعة هذا الاسم؛ لأن الجهاد هو الأمر الذى اجتمع عليه أفرادها(؟)، إيمانًا منهم أن كل شيء يبدأ لينتهي بالجهاد هدفًا أساسيًّا يعلو على غيره من الواجبات الدينية.

تشريع إلهي

وهذا خلط وتخليط بين الوحي الإلهي والسلوك البشري، فالجهاد لم يشرعه من أقاموا تنظيم الجهاد، بل هو تشريع إلهي أُمر به المسلمون دفاعًا عن أنفسهم وتأمينًا لوجودهم في آيات بينات صريحات لا لبس فيها ولا غموض، ومنها:

«وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» (الحج: ٧٨).

«فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً» (الفرقان:٥٢)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم

بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ «(الممتحنة:١)

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ «(البقرة: ٢١٦)

فالجهاد كما توضح هذه الآيات وغيرها وحي إلهي صريح للدفاع عن النفس وتأمين الوجود الإسلامي، ومن يقتل بسببه فهو شهيد، والآيات كثيرة في هذا السياق. أما حين يتحرك بعض الناس بوحي صناع الإرهاب، أو بفهم مغلوط، ويتخذ من تشريع الجهاد وسيلة لتحقيق أهداف غير إسلامية أو خاصة، فلا يجوز أن نتهم الإسلام أو التشريع في ذاته.

وإذا كان بعض الفقهاء والعلماء يجعل الجهاد الركن السادس من أركان الإسلام؛ فإن التفريط في هذا الركن يعد مخالفة صريحة للإسلام، فمقاتلة أعداء الإسلام ومغتصبي أوطان المسلمين، فريضة ناجزة في الموعد الذي يتفق مع استعداد الجيوش وتجهيزها، أما الهروب من مواجهة الأعداء ومغتصبي الأوطان والاستسلام أمامهم فهو فرار وهو خيانة عظمى، وله عقاب في الدنيا والآخرة.

إن التخليط باستدعاء العقل السلفي، وبعض العلماء في زمن مضى لا مجال له هنا، لأن بعض هؤلاء العلماء قاموا بواجبهم الجهادي ضد الاستعماريين وأتباعهم الذين خانوا الأمة وخانوا الإسلام جميعًا.

انتصار الأفغان وتحويل الوجهة

وأظن أن مواجهة الغزاة السوفيات وعملائهم من الشيوعيين الأفغان الخونة واجب ديني ووطني، ومن حق المسلمين أن يستعينوا بكل من يمكنه مساعدتهم بالمال والسلاح، ولا ذنب لهم بعدئذ إذا أسفر هذا المساعد عن وجه قبيح ومكر خبيث.

ولاشك أن انتصار الأفغان المسلمين على الغزاة وأتباعهم كان مفاجأة لأصحاب الوجه القبيح والمكر الخبيث؛ فأعملوا آلة المكر والإجرام للوقيعة بين المجاهدين الأفغان، وتحويل وجهتهم الصحيحة إلى وجهة خاطئة تسفك الدماء المحرمة وتقتتل فيما بينها، وتمزق البلاد، وتفتح المجال لأغراض بعيدة عن الدين والمصلحة الوطنية، وقد استطاعت جماعة طالبان في مرحلة معينة أن تسيطر على البلاد وتوحدها وتوقف الصراع الدامي إلى حد كبير، وهو ما لقي ارتياحًا في العالم الإسلامي، مع التحفظ على بعض المفاهيم التي تصب فيما يسمّى التشدد أو التدين الشكلي.

- ٣ -

يعد جابر عصفور رواية الطاهر وطار «الزلزال» الرواية الأولى في مواجهة الإرهاب الديني زمنيًّا؛ فقد ظهرت سنة ١٩٧٤، وتأتي بعدها- كما يعتقد- رواية صبحي موسى «أساطير رجل الثلاثاء» (٢٠١٣)، ويقصد به أسامة بن لادن، الذى ارتكب - من وجهة نظره - جريمته الكبرى بنسف برجي مركز التجارة العالمي بجزيرة «منهاتن» الأمريكية يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، الذى كان يوافق يوم الثلاثاء... ، وأسفرت عن مقتل ثلاثة آلاف شخص تقريبًا ليس من بينهم يهودي واحد! وتحمّل الرواية أسامة بن لادن عولمة الإرهاب الإسلامي، عبر أقطار العالم المختلفة، محققًا للمرة الأولى في تاريخ البشرية ضحايا من المواطنين الأبرياء على امتداد الأقطار والقارات كما يزعم!

وتقدم الرواية مجموعة من الشخصيات التي شاركت في مقاومة الاحتلال الشيوعي بأسمائها الحقيقية، أو الرمزية فهناك: «الملا محمد عمر» زعيم طالبان، الذى نراه في الرواية باسم «مجد الدين»، كما نرى «أسامة بن لادن» باسم «أبى عبد الرحمن»، و«عبد الله عزام» باسم «أبى سعيد»، و«أيمن الظواهري» باسم «حسن الصباح»، وذلك في سياق يجعل من عبد الله عزام مُمثلًا للجماعات المحاربة التي سرعان ما تصارعت مع أقرانها في خلافات أدت إلى مقتله مع ولدين له؛ دفاعًا عن المكاسب المادية وليست الدينية! وهناك شخصيات أخرى: سعيد

المصري، وممدوح محمود سالم، وسيد إمام، وأبو عبيدة البنشيرى، ووائل حمزة جليدان. ومجموعة من قيادات المجاهدين الأفغان، أمثال: عبد رب الرسول سياف، وبرهان الدين رباني..

الإرهاب الديني

لا تعنينا في هذا المقام أسماء من تتناولهم الرواية بقدر ما تعنينا فكرة شيطنة الإسلام، وجعله مصدرًا للشر والقتل والخراب، على سبيل المثال يبدو عبد الله عزام صانعًا لقادة الإرهاب الإسلامي كما يسمّيه عصفور وعلى رأسهم أسامة بن لادن، فقد كان عزام صديقًا لوالد أسامة، ومشاركًا إياه في الحلم بعالم إسلامي موحَّد، ترفرف عليه راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكانت لابن عزام طريقة مبهرة في جذب الأنصار وتجنيد المجاهدين، وهو الأمر الذى أوقع أسامة في شباك حلمه وجذب إليه الفتى الذى كان مستعدًا بتكوينه الفكري والوجداني والديني لأن ينجذب إلى عالم ابن عزام كما تنجذب الفراشات إلى النار.

ويرى عصفور أن صبحى موسى هو الروائي الذى استطاع أن يستنبط وعى هذا الإرهابي الديني، ويجعلنا نرى داخل وعيه، وعالم أسراره التي تفضحها هذه الرواية بجرأة لابد من تقديرها !

وينعطف عصفور نحو هجاء ما يسمّيه العقل السلفي ويصفه أنه عقل لا يعيش في الحاضر، وإنما يعيش في الماضي الذى يرجع إلى القرون الأولى للإسلام، ولذلك فهو عقل لا يرى ما حوله على سبيل الحقيقة وإنما يرى ما وراءه أو يتباعد عنه.

ويرى أن الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، واحد من تلك الأيام التي شكلت تحولًا تاريخيًا في المسار العالمي وكانت منعطفًا

تاريخيًا تكبّد العرب والمسلمون ثمنه غاليا، وشكّل نقطة تحوّل كبير في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية سواء من ناحية سياستها الداخلية أو الخارجية، أو على صعيد العلاقات الدولية وخاصة منها ما يربط الغرب بالعالم العربي والإسلامي. وكأنه يمهد لتبرئة الولايات المتحدة من ذبح شعب مسلم برئ لا يعرف أين تقع مانهاتن، أو نيويورك، أو الولايات المتحدة ؟ وبدلًا من أن تقوم الولايات المتحدة باحترام القانون الدولي والأعراف العالمية، فإنها تتحدى الناس جميعًا وتقوم بمحاسبة من تتهمهم بالإرهاب وارتكاب الجريمة الدامية في برجي التجارة، وتذهب لتحارب الشعب الأفغاني المسلم، وتدمّر بلاده، وتظل جاثمة على صدره حتى الآن (سبعة عشر عاما)، ولا أحد يعلم متى ترحل؟ وإن كانت قد رضخت أخيرًا للصلح المقترح من رجلها رئيس أفغانستان الحالي بالجلوس مع طالبان للتفاوض.

ويذكر في هذا السياق أن الكاتب الراحل محمد حسنين هيكل، كان يطالب قبل أن تقوم الولايات المتحدة بغزو أفغانستان، بتحقيق دولي محايد لمعرفة الفاعل الحقيقي في تفجيرات برجي التجارة، وهذا كان سيأخذ المجرمين الحقيقيين إلى محكمة العدل الدولية، ولكن الدول العربية والإسلامية لم تلتفت إلى هذا الطلب، وسارعت لإرضاء الولايات المتحدة بالتبرؤ من المجاهدين الأفغان، وأطلقت أبواقها لتستنكر الإرهاب، وأخذ كثير منها يغيّر في مناهج التعليم، وحذف ما يتعلق بالجهاد وغيره من قضايا تعدها أميركا والغرب سببًا في الإرهاب، وللأسف لم تستنكر دولة واحدة من الدول العربية أو الإسلامية ذبح مئات الألوف من الأبرياء في أفغانستان الذين ذهبوا ضحايا لقصف

الفانتوم وصواريخ كروز، بل قدمت بعض هذه الدول أراضيها ومياهها الإقليمية لتكون قواعد للغزاة الأميركيين.

العدو الأخضر

ويسهب جابر عصفور في بيان التغيرات التي طرأت على العالم والولايات المتحدة بعد أحداث سبتمبر، وكلها تصب في حصار المسلمين وكراهيتهم، وإن كانت طريقة عرضه تشي بالترحيب بهذه التغيرات.

وهو ما جعله يعترف أن الولايات المتحدة بقيادة الرئيس الأمريكي جورج بوش وجدت في أحداث سبتمبر غطاء لتشن حربًا على أفغانستان، وتقوم بما تشاء، فقد حصلت هذه الإدارة من الكونجرس الأمريكي على كل الأموال التي طلبتها من أجل برنامج الدفاع الصاروخي القومي، وتم إلغاء معاهدة الأنظمة الدفاعية المضادة للصواريخ الباليستية دون ضجة داخلية أو خارجية، وحصلت على زيادات كبيرة في الميزانية التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية.

لقد صار الإسلام عدوًا للولايات المتحدة بدلًا من الشيوعية، وهناك من أطلق على الإسلام العدو الأخضر، وتحدّث بعضهم عما يسمّى صراع الحضارات، حيث أصبح الإسلام في منظورهم عدو الحضارة والسلام. وصار ما يسمّى الحرب الوقائية سلوكًا استعماريًا، لا يستند إلى قانون أو نظام دولي.

بالطبع لم تلتفت الرواية ولا جابر عصفور إلى بعض التحليلات التي فسرت الحادث وفقًا لما يسمّى نظريات المؤامرة، وكل منها له أدلته وأسانيده وجميعها متجهة لفرضية كون هذا الحدث إما عملية تم السماح بتنفيذها من قبل مسؤولين أمريكيين، أو أنها نفذت بالتنسيق مع عناصر

لا صلة لها بتنظيم القاعدة، وتوطدت نظريات المؤامرة بصورة أكثر في الشارع الأمريكي في عام ٢٠٠٤ خاصة مع احتلال العراق وإعادة انتخاب جورج بوش لفترة رئاسية ثانية، وازدادت هذه النظريات تعمّقًا في عام ٢٠٠٦ في الذكرى الخامسة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر.

لم يقل لنا جابر إن رواية تعالج موضوعًا خطيرًا كهذا، لم تتناول جوانبه المختلفة، ولم تشر بكلمة إلى الظلم الذي أوقعته الولايات المتحدة بملايين المسلمين الضحايا، ونظرتها الاستعمارية اللصوصية إلى ثروات العالم الإسلامي وإمكاناته الاقتصادية والتجارية، وكانت في كل الأحوال صانعة للذرائع التي جعلتها غطاء لتشويه الإسلام والمسلمين من ناحية، واحتلال بلادهم من ناحية أخرى، وتأمين وجود الكيان الصهيوني من ناحية ثالثة.

الإرهاب= الإسلام

إن رواية «أساطير رجل الثلاثاء» عمل دعائي فج، معاد للهوية الثقافية الإسلامية، ومسوّغ رخيص لممارسات الاستبداد في البلاد الإسلامية، فكلمة إرهاب صارت تعني الآن الإسلام، وهو ما صرّح به جابر عصفور في كتابته عن الإرهاب الإسلامي في مقابل نزع صفة الإرهاب من الكنيسة والكنيس، والرواية في تقديري لا تقل فجاجة عن رواية «السلفي» التي كتبها عمار على حسن؛ موال للسلطة، وجاءت منشورًا دعائيًا لا قيمة فنية له (سيأتي فصل عنها لاحقًا - إن شاء الله-).

كتّاب الفرنكوفونية

أما الرواية الثانية فهي لكاتب فرانكفوني من الجزائر اسمه واسيني الأعرج، وروايته اسمها «أصابع لوليتا»، وهي احتذاء لرواية «لوليتا»،

ومؤلفها الكاتب الأميركي من أصل روسي «فلاديمير نابا كوف».. (صدرت عن دار الآداب عام ٢٠١٢).

وكأن جابر عصفور لم يكتف برواية «أساطير رجل الثلاثاء»، للتشهير بالإسلام والمسلمين، فهو شغوف بكل ما يشوّه الإسلام ويشيطنه، لذا راح يفتش في روايات الأشخاص الموالين لأنظمة الحكم المستبدة في العالم العربي، فيمدح استضافة السلطة المصرية للكتّاب الفرانكوفونيين في معرض الكتاب (٢٠١٨) ومن بينهم أو على رأسهم- كما يقول- واسينى الأعرج وعز الدين ميهوبى، وكلاهما- في رأيه - كاتب موهوب، وشخصية لها تأثيرها في الأدب العربي بوجه عام(؟؟). وقد سبق له أن كتب عنهما في سياق مقاومة الرواية الجزائرية لما يسمّيه الإرهاب الديني الذى امتد نحو عشر سنوات بالجزائر، وترك نحو ربع مليون شهيد من الرجال والنساء الذين قتلتهم- كما يدعي- أصابع الغدر وأسلحته ولم تراعِ فارق السن، جامعة بين الكبار والصغار دون أدنى تمييز، وذلك بفتوى شيطانية مؤداها أن الجميع كفار، وأن الأطفال الأبرياء سرعان ما يتحولون إلى كفار عندما يكبرون، فمن الأوفق قتلهم، لم يقل لنا رأيه من خلال الإسلام وتشريعاته، ولكنه جعل هذه الفتوي الشاذة من صميم الإسلام، في الوقت الذي يلح فيه على ما يسمّيه الإرهاب الإسلامي، وكأن الإسلام ما جاء إلا لترويع العلمانيين والشيوعيين، والملحدين، وأشباههم، فالمسلم الذي يتمسك بمفاهيم الإسلام- عند عصفور- إرهابيّ بالضرورة، وأيضًا هو جاهل وضال ولا يستخدم عقله أو فكره.

ويبدو أن جابر عصفور منحاز إلى حزب فرنسا أو عسكر الجزائر وأصحاب الملايين الحرام وكتاب الفرانكفونية، فيتجاهل أن ما جرى

في الجزائر كان انقلابًا عسكريًا، وسرقة للحرية والديمقراطية بعد أن فازت جبهة الإنقاذ الإسلامية بأغلبية المقاعد في الانتخابات التشريعية والبلدية، حيث قام العسكر بإقالة الرئيس الشاذلي ابن جديد، وتحديد إقامته، وإلغاء المرحلة الثانية في الانتخابات، والقبض على الآلاف المؤلفة من الإسلاميين وإيداعهم السجون، وإطلاق القوات الخاصة في الجيش الجزائري لذبح الآمنين في القرى والمدن، ولعل صديقي اللدود جابر عصفور يقرأ كتاب «الحرب القذرة» المنشور بالفرنسية في باريس للضابط الجزائري في القوات الخاصة الهارب إلى فرنسا، حبيب سويدية (ترجمته: روز مخلوف إلى العربية وصدر عن دار ورد السورية بدمشق عام٢٠٠٣م)، ليرى أن العسكر كانوا يدفعون الجنود المخمورين أو بعد تخديرهم وتركيب لحي مزيفة، ليقوموا بعملية الذبح للقرى الآمنة التي يشتم منها رائحة التمسك بالإسلام، وكي لا يتردد الجندي القاتل أو يتعب من عمليات القتل يجب أن يكون غائبًا عن الوعي، إنها عملية استئصال للإسلام دون رحمة، وتدليس على الأمة ليقال إن أصحاب اللحى قتلة وموتى الضمير!

الهجوم على الشيخ الغزالي

لا يكتفي جابر عصفور بترديد ما يقوله حزب فرنسا عن الجريمة الدامية وإلقاء التهمة على المسلمين، بل يهاجم الشيخ محمد الغزالي الذي أسهم في عملية التعريب بالجزائر، فيقول: «وللأسف اقترن التعريب (الذى كان دفاعًا عن الهوية العربية الجزائرية في مواجهة الفَرْنَسة) بنزعة دينية سلفية أسهمت في تغذيتها بعض العقليات المرتبطة بجماعة الإخوان المسلمين، مثل الشيخ محمد الغزالي الذى خصّصت له الحكومة الجزائرية

في السنوات التي عمل فيها بالجزائر برامج تليفزيونية للدعوة الإسلامية، وكأنه مطلوب من الحكومة الجزائرية آنئذ أن تجعل الفرانكوفونيين هم الذين يقومون بالتعريب، وكأن المطلوب منها أن تستأصل الإسلاميين؛ لأن بعضهم كان ينتمي إلى بعض الحركات الإسلامية، وكأن كل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، يجب أن ينحاز إلى فرنسا وحزبها وإلا حق عليه الإقصاء أو الاستئصال، أو الذبح كما حدث في العشرية السوداء!

ويكرر جابر عصفور مقولاته التي لا يملّ من ترديدها، وفي مقدمتها أن الإسلاميين أغرقوا البلاد في أنهار الدماء، فيبرئ ساحة حزب فرنسا الذي انقض على الديمقراطية وقاتل شعبه بدلًا من محاربة الكيان الغاصب في فلسطين، ويحكي عصفور الأحداث من وجهة نظره المنحازة' فيزعم أن الأحداث تطورت في الاتجاه التكفيري المُتوقع لها، فبدأ الإسلاميون بقتل غير المسلمين لاسيما القساوسة والراهبات والدبلوماسيين والمثقفين والمنادين بحقوق المرأة والأطباء ورجال الأعمال، وطبقًا لمنطق الجماعة الإسلامية المسلحة فيما يقول لورانس رايت في كتابه «البروج المشيدة: القاعدة والطريق إلى ١١ سبتمبر» فإن الديمقراطية والإسلام نُظِر إليهما بوصفهما قطبين متعارضين!!، ويواصل جابر مزاعمه «لم يكن إرهابيو الجماعة المسلحة يستهدفون المُدرِّسين والديمقراطيين فحسب، فقد ذبحوا سكان قرى بأكملها في مذابح حدث الكثير منها في منتصف الليل، وكانوا يُشيدون بهذه الفظائع على صفحات جريدة «الأنصار» الأسبوعية التي كانت تنشرها الجماعة المسلحة في لندن، وهى الجريدة التي كانت تتصدرها عناوين مثل: «الحمد لله ذبحنا اليوم مائتي شخص» و«أحد إخواننا يطيح برأس أبيه في سبيل الله»، وقد وصلت موجة الجنون

الديني إلى ذروتها في إعلانٍ أدان الشعب الجزائري برُمَّته!! فقد نص بيان رسمي للجماعة على هذه المعادلة بوضوح قائلًا: «لا يوجد حياد في الحرب التي نشنها، ففيما عدا أولئك الذين يحاربون في صفوفنا، الجميع مرتدون ويستحقون الموت».

ولا أدري كيف وصلت إلى يد جابر مثل هذه الجريدة، وهو أبعد الناس عن الاهتمام بالجزائر في ذلك الحين؟ فقد كان منشغلًا هو وشيعته بالكتابة في الصحف، والكلام في التلفزيون عن الإرهاب الذي يصفه بالإسلامي في مصر، وتطوير الخطاب الديني الإسلامي وحده، ومكافحة التطرف والتشدد الإسلاميين. وأظن أني كنت أول من اهتم بهذا الحدث في مصر، ونشرتُ كتابًا موثقًا عن الحكم العسكري وفظائعه في الجزائر صدر عن دار الاعتصام عقب الانقلاب على الديمقراطية، وبدء عملية الاستئصال الدامية في ربوع البلد المسلم.

ندين الإرهاب أيًا كان مصدره

إنّ كاتب هذه السطور يدين الإرهاب في كل صوره، ولو تزيّا بزيّ الدين، ويرى أن الإرهابي مجرم بحكم الدساتير والقوانين، وقبل ذلك بتشريع الإسلام الذي يحرم قتل الأبرياء والمعاهدين، ويرى أن من قتل نفسًا بغير نفس؛ فكأنما قتل الناس جميعًا! ولكنه يرفض أن يتحمل المسلمون جرائم لم يقترفوها، ومن ثم يدين من يجعل الإسلام إرهابيًا أو يشيطنه، أو يجعله عدوًا للسلام والأمن، ولا أدري لماذا لا ينظر مثقفو السلطة الذين لا يؤمنون بالديمقراطية إلى ما يجري في الغرب حين تعلن بعض الدول عن وقوع عمليات إرهابية؟ إنهم لا يدينون المسيحية ولا يشيطنونها ولا يزعمون أن هناك تطرفًا مسيحيًا أو إرهابًا

مسيحيًا، ولا يعمّمون الجريمة الإرهابية باتهام المسيحيين جميعًا، ولا يطلقون عليها الإرهاب المسيحي، بل يعالجون المسألة في محاسبة المتهمين وحدهم، ووضع الاحتياطات اللازمة لتلافي القصور الأمني، بيد أن من يتصدرون المشهد الثقافي لا يتورعون عن تحميل أية جريمة للمسلمين جميعًا، بل للإسلام حين يستخدمون مصطلح الإرهاب الإسلامي!

إن أفظع إرهاب في العالم هو الذي صنعه اليهود والهمج الهامج في الغرب وأميركا، وقد راح ضحاياه الملايين من المسلمين وغير المسلمين في الشرق والغرب، ودفعت الجزائر وحدها مليونًا ونصف مليون جزائري في حرب الاستقلال، وما زال الغرب وأميركا واليهود في إرهابهم وجرائمهم يعمهون.

ولست أدري هل يساند جابر عصفور إرهاب الغرب وأميركا واليهود، أو يصرّ على أن يكون الإسلام وحده هو الإرهابي؟

الأزهر أيضًا

إن سياق شيطنة الإسلام ووصمه بالإرهاب يمتد إلى الهجوم على الأزهر أيضًا وعدّه منبعًا للإرهاب، ويتناغم مع الإرهاب الاستعماري ضد المسلمين في الغرب وأميركا، نشرت صحيفة المصريون» في ٢٢ مارس ٢٠١٨ تصريحات لموسى مصطفى موسى، المرشح لرئاسة الجمهورية، بأنه حال فوزه سيلغي جامعة الأزهر، وفي تصريحات متلفزة له، قال موسى: إنه سيعمل على توزيع طلاب الجامعة على باقي الجامعات المصرية؛ للقضاء على الفكر المتطرف في العملية التعليمية بمصر، وأضاف أنه سيعمل على إلغاء جميع الكليات العملية والمتخصصة من الأزهر، «كونها تبث روحًا مخالفة للروح التي يحتاجها الوطن في هذه الفترة»،

مشيرًا إلى أن جامعة الأزهر يتحكم فيها شيخ الأزهر، وهو ما لا يليق بالعملية التعليمية في مصر!

هذا المرشح لم يهاجم الأزهر من فراغ، بل سبقته أبواق السلطة وكتّابها التي تكثّف حملتها ضده منذ سنوات ومن بينهم جابر عصفور، وتصفه بأوصاف قبيحة لم يجرؤ عليها السابقون في القرون السابقة، ولذا جاءت تصريحات المرشح المذكور تعبيرًا عن مناخ عام معاد للإسلام وليس الأزهر، وهذا المناخ يغذيه كاتب السلطة وكل سلطة جابر عصفور، وأمثاله ممن يتصدرون المشهد الثقافي، حيث يغيب العقل والمنطق والتفكير الحر، ترى كيف يكون الأزهر صانعًا للتطرف والإرهاب، وهو الذي خرّج للأمة على مدى ألف عام أو يزيد أعلام الفكر والأدب واللغة والفقه والشعر والصحافة والدعوة والحرية والجهاد ومقاومة الاستعمار والاستبداد؟

- ٤ -
العنصرية والوحشية

لاشك أن المناخ المعادي للإسلام والمؤسسات الإسلامية العلمية يمتح من معين الإرهاب الغربي الأميركي الذي يتحرك بالعنصرية والوحشية على أرضه وخارجها.

نشرت الأهرام في ٢٤/ ٣/ ٢٠١٨م أن الادعاء العام في ويتشيتا بولاية كانساس الأمريكية وجّه تهمًا لثلاثة أشخاص بالتخطيط لتفجير مجمع سكني بغرب الولاية يقيم فيه مهاجرون مسلمون من الصومال .

وذكرت ريسا بيركوير ممثلة الادعاء أن المتهمين، وهم أعضاء في ميليشيا تسمّى «قوة أمن كانساس»، شكّلوا مجموعة أطلقوا عليها اسم «الصليبيون» خططوا لاستخدام سلاح دمار شامل لقتل أكبر عدد ممكن من المسلمين، وحرمان آخرين من حقوقهم المدنية، وتوجيه رسالة مفادها أنهم ليسوا محل ترحاب بالولايات المتحدة!

مثل هذا الإرهاب القبيح لا يستوقف جابر عصفور ولا صبحي موسى ولا واسيني الأعرج ولا أشباههم، ولا يمثل بالنسبة لهم وخزًا للضمير أو جرحًا للمشاعر.

ويفسر جابر عصفور اهتمامه بروايات واسيني الأعرج ورفاقه من الفرانكوفونيين التي تعالج الإرهاب الإسلامي كما يرى؛ فيتحدث عن معاناتهم المزعومة من الإرهابيين المسلمين الذين لا يؤمنون بفصل الدين

عن الدولة، ولا يكتفون بروحانية الدين، ولا يتقبلون الحداثة بمفهومها الغربي، فهم أعدى أعداء الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة، أي التي لا مكان فيها للإسلام مثلما فعل أتاتورك في تركيا.

ويأسى عصفور على عدم إفادة السلطة المصرية من تجربة الجزائر فيقول: «لو كنا تعلمنا الدرس الذى مفاده أن «الإسلاميين في الجزائر استخدموا الديمقراطية سُلَّمًا، ثم ركلوه، وقالوا: «هذه هي نهاية اللعبة». وفى الوقت نفسه كان الخطأ الأكبر الذى ارتكبته الدولة في الجزائر هو عزل النخبة العلمانية المثقفة، وتغليب الإسلاميين الذين استغلوا سوء الحالة الاقتصادية لاكتساح الانتخابات»، ويناشد السلطة أن تتعلم للخلاص الدائم من تيار الفاشية الدينية لمصر والجزائر على السواء، بينما يؤكد واسينى الأعرج على أهمية التعليم بمعناه الحديث، وذلك بشرط أن تكون المدرسة عقلانية الاتجاه، منفتحة، إنسانية التوجه، مدرِّسُوها مُشبَّعون بروح الثقافة الإنسانية، أما القُدامى من المدرسين فلابد من تدريبهم على أفكار الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة، وهى خطة استراتيجية واعدة، دونها سيتحول الحاكم إلى رجل إطفاء!

فالإسلام فاشي، والإسلاميون منافقون؛ لأنهم يتخذون الديمقراطية سلمًا ثم يركلونها، واستخدام النخبة العلمانية هو الحل، مما يعني إقصاء الإسلاميين، واضح أن أفكار الإسلام لا تعجب عصفور ولا واسيني؛ لأنها ليست عقلانية ولا منفتحة ولا إنسانية! وإني أسأل: هل هذا الكلام يليق بأستاذ في قسم اللغة العربية يفترض أن لديه حدًا أدني من الوعي بمفاهيم الإسلام؟ ويعلم أن الإسلام هو الدين الخاتم الذي يفسح مكانًا عريضًا للعقل والانفتاح على الآخرين، مما لا يوجد في عقيدة

أخرى تفرض صكوك الحرمان والغفران! إن إنسانية الإسلام تغطي العالم بأسره « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا» (الإسراء: ٧٠).

هل أذكّر صديقي اللدود أن العدو الصهيوني يسمح للإخوان المسلمين بالمشاركة السياسية، وأن هناك نوابا إسلاميين في الكنيست اليهودي؟ وهل أذكّره بأن العالم الغربي مع كل ما فيه من قبح عنصري عدواني يسمح للإسلاميين بالنشاط السياسي والاجتماعي من خلال الأحزاب والبلديات والجمعيات المختلفة؟ لماذا يريد عصفور ورفاقه عزل المسلمين، واستعلاء الأقليات الدنيوية والوثنية في بلاد الإسلام؟

اعترافات يونس مارينا

بطل «أصابع لوليتا» لواسيني الأعرج كاتب اسمه يونس مارينا، ويكاد يتطابق في سيرته مع المؤلف، ويقدم اعترافاته عن الأثرِ الذى تركته فيه حبيبته لوليتا التي تركته بعد أن رحلت عن العالمِ في حادثٍ كابوسي من أحداثِ الإرهاب الديني. ويونس مارينا كاتبٌ جزائري اضْطُرَّ إلى الهرب من الجزائر فرارًا من كابوس الإرهاب الديني والفساد السياسي معًا (تأمل استخدام الفساد السياسي، بدلًا من الاستبداد والقمع والطغيان)، ولم يهدأ إلا بعد أن وصل إلى فرنسا التي تحررت فيها كتاباته من القيود، ونجح في أن يُصدر فيها عدة روايات جعلت منه كاتبًا عربيًّا (يقصد فرانكفونيا) مرموقًا من الكُتّاب الذين فُرِض عليهم أن يختاروا الحياة في المنافي، بعيدًا عن أوطانهم التي اكتوت بجحيمِ الإرهابِ الديني والفسادِ السياسي على السواء. وفى المَنفَى يلمعُ اسم يونس مارينا وتُترجم كُتبه إلى عدة لغات أوربية.

يونس مارينا يهرب من جحيم الإرهاب الديني- الإسلامي وليس المسيحي أو اليهودي!- فالذين هربوا من سورية مثلا وهم بالملايين، عدا الشهداء الذين قتلوا بالبراميل المتفجرة والطائرات الروسية والمليشيات الطائفية، لم يجدوا ملجأ مثل الكاتب الذي يعيش في نعيم باريس وأنوارها، ويقيم حفلًا لتوقيع نسخ روايته المضادة للإسلام والفن، ويزعجه أن يسأله قارئ مسلم ألماني من أصل تركي: «السيد مارينا... لماذا تكتب ضد الإسلام؟ ماذا ستربحون عندما تسخرون من ربِّكم؟!». فيصفه بأنه ذو خلفيةٍ إسلاميةٍ ضيقة الأفق، وينسحب الشاب مُنكَّس الرأس تاركًا النسخة الوحيدة المتبقية على طاولة التوقيعات. وظل يونس مارينا حائرًا يسأل نفسه: «لا أدرى لماذا يتحوّل الناس فجأة إلى محاكم التفتيش المُقدَّس؟ ومن كلَّفهم بذلك؟». ولا أدري لماذا لم يقم يونس مارينا بالإجابة على سؤال القارئ، ولماذا يفترض أنه ذو خلفية إسلامية، ضيقة الأفق؟ أما كان الأجدر به، وهو المستنير كما يزعم أن يحاور القارئ بطريقة متحضرة، ويكشف له خطأه إذا كان مخطئًا؟

ثم ماذا يعني بمحاكم التفتيش المقدسة؟ أظنه يعلم أن الذين أقاموا محاكم التفتيش المقدسة لم يكونوا المسلمين، ولكن أصدقاءه الأسبان أو الغزاة في الأندلس، وما فعلوه يستحق عشرات الروايات، وليته احتذى اليسارية الراحلة رضوى عاشور، فقد كتبت روايتها الجميلة «ثلاثية غرناطة» لتصوّر ما أوقعه الغزاة المتعصبون الأسبان بأهل الأندلس المسلمين المسالمين من مجازر ومحارق يندى لها جبين التاريخ!

قنينة شمبانيا

المهم في رواية الأعرج أن بطله يعيش مع حبيبته أخبار النجاح المبهر لرواياته، فالرواية وجدت جمهورها، وسوف يوقِّع عقود الترجمة الدَنماركية والسويدية والنرويجية والهولندية واليابانية والصينية والعبرية، واقتسم مع الحبيبة ما تبقَّى من قنينة شمبانيا الافتتاح التي جاءت بها صاحبة دار النشر!

ونفهم من السرد كما يقول عصفور أن الحبيبة مثل البطل، ضحية القتلة الجُدد، مؤكِّدة أن الدين عندما يُسَيَّس يفقد عفويته، ويتحول إلى كراهيةٍ بغيضةٍ بين الناسِ والمُحيطِ، وتوقف عند كلماتها: «أحيانًا يهددونكَ ليرموكَ في عُمقِ الرُّعبِ، مُتعتهُم الكبيرة أنْ يُفقِدوكَ توازنكَ». وأضافت: « لابد أن يكون ذُعركَ أكبر مع (رواية) عرش الشيطان، قالوا إن الشيطان هو من أوحى لك بهذا النص... قرأتُ هذا في إحدى الصحف الوطنية، قبل أن يُفتوا بقتلكَ»!

والطريف أن كل من يريد الشهرة من الكتّاب البائسين غير الموهوبين، يدّعي أن الإرهابيين المسلمين يهددونه بالاغتيال أو الموت، وأن دمه مطلوب من الجماعات الإرهابية الإسلامية، كانوا في السابق يرسلون كتبهم الرديئة إلى الأزهر ويرفقون بها خطابات مجهولة تزعم أن الكتاب يهاجم الإسلام؛ ليثور العلماء ويتحدثون عنه، ويتردد صدى كلامهم في الصحف والإعلام، فتتحقق شهرتهم، ولما اكتشف الأزهر حيلتهم، ولزم الصمت، وفشلت حيلتهم، فإنهم راحوا يزعمون أنهم مهددون بالاغتيال من قبل المسلمين المتشددين، فيحققون الشهرة من ناحية، ويشوّهون الإسلام من ناحية أخرى!

يقارن عصفور بين نص لوليتا، وأصابع لوليتا، ويصل إلى نتيجة: نَص عربي يُعربِدُ فيه الموت باسم الدين منذ البدايةِ إلى النهاية(!)، ونَص أمريكي تُعَرْبِد فيه النشوة والرغبة التي تنتهي بالموت، ولكن باسم الحياةِ التي هي نوع من تفجُّرِ الدوافعِ الحيوية التي تُبقِي على ربيعِ الحياةِ وخصوبتها.

بلا شك، فروايَة واسيني الأعرج تجعل الدين(الإسلام) مرادفًا للقتل، وأتباع هذا الدين قتلة يهددون بالقتل، ويفتون بالقتل، ويرمون الكتّاب والناس في عمق الرعب، بينما النص الإباحي للكاتب نابا كوف مرادف للحياة وربيعها!

بالطبع لم ينظر الكاتب واسيني أو الناقد عصفور حوله في البلاد العربية؛ ليرى الرعب الحقيقي الذي تصنعه حكومات القتل والذبح والتهجير والنزوح واستقدام الدول الكبرى وغيرها لقتل الشعب الذي قد لا يهتم كثير من أفراده بشأن الدين أو قضاياه، ولا يعرفون معنى فصل الدين عن الدولة، ولا معنى تسييس الدين كما تشير الرواية أو من يحتفي بها.

تساؤلات

الكاتب الذي يجد مرتعًا خصبًا في بلاد الثقافة الاستعمارية المهيمنة، يعمّم صورة الإسلام والمسلمين، ولا يتوقف عند حدود الأفراد أو الجماعات التي يتهمها بالعنف والإرهاب، ولا يبحث عن أسباب ظهور العنف والإرهاب في بلاد يتمنى المواطن أن يصل فيها إلى مرتبة الحيوان وليس الإنسان، حتى يجد من يرفق به ويحنو عليه، ولا يقتله الطغاة بالدبابة والطيارة في الشوارع والميادين، أو يقصفون المساجد والمخابز والمستشفيات والأسواق، ولا يراعون قانونًا، ولا دستورًا، ولا ضميرًا.

هل تساءل كتّاب السلطة يومًا عن الأسباب الحقيقية لما يسمّونه الإرهاب الإسلامي؟

هل سمعوا عن الاستبداد السياسي الذي يقهر الشعوب، ويبني من السجون والمعتقلات أكثر مما يبني من مستشفيات وجامعات، ويتعامل مع المواطنين بعنصرية فجّة تميز بينهم وتفاضل على أساس الولاء؟

هل وصل إلى آذانهم ما يفيد أن هناك تعذيبًا وحشيًا في السجون لأصحاب الرأي والفكر يفوق وحشية الوحوش الكاسرة، وتستخدم فيه أحدث آلات التعذيب المستوردة من بلاد الاستنارة والتقدم؟

خداع البسطاء

فكرة التدليس التي تعالج جزئية دون بقية الجزئيات واطراح الأسباب والدوافع؛ منهج كتّاب السلطة وكل سلطة، ولذا يخدعون البسطاء، ولكنهم لا يستطيعون مع من يفهمون القضايا، ويعلمون جذورها وفروعها جميعًا.

إن فكرة اتهام الإسلام بالإرهاب والترويج لها في الرواية من خلال أعمال لا تلقي بالًا إلى الإتقان الفني، تشي بعدوانية مقيتة، تعبّر عن موقف المثقف المتماهية مع السلطة الظالمة، والمعادية بالطبع لجوهر العقيدة التي تأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

لماذا اختفت أوامر العقيدة ونواهيها في رواية واسيني الأعرج وظهرت فيها منذ بدايتها إنذارات القتل وانتهت بتدمير الجسدِ الإنساني، في علامةِ مُؤكِّدة على الموتِ الكابوسي الذى يسبّبه فعل الإرهاب الديني باسم الإسلام؟

يعلّل جابر عصفور لاختيار واسيني الأعرج تقنية المُعارضة أو الباروديه (Parody) في نص لوليتا دون غيره، بأنه أولًا- يمايز بين الإرهابِ الديني العربي المعاصر الذى يشنُّه إرهابيو الإسلام على المثقفين المسلمين في منافيهم الأوربية. وثانيًا- ليعقد مقارنةً مُضمَرةً لا تخلو

من دلالتي المفارقة والتضاد ما بين عَالَمَين يعيش فيهما الكاتب الروائي: العَالَمَ الأول هو العَالم الغربي الذى عاش فيه فلاديمير نابا كوف الكاتب الأمريكي الروسي الأصل في الولايات المتحدة، هربًا من جحيم القمعِ السوفيتي إلى ما بدا مرفأ الأمان والحرية في أوربا، وبعدها الولاياتَ المتحدة، حيث استقر وكتب بلغتها روايته الأشهر «لوليتا» التي بلغت من الشهرة والذيوع ما ندر أن يحدث مع رواية قبلها.

العالم الآخر الذي لم يشر إليه عصفور هو العالم العربي، الذي يحصي فيه المستبدون أنفاس الكتّاب والأدباء والشعراء، مالم يكونوا مجنّدين لبعض أجهزتها، أو متصدّرين لمشهدها الثقافي بحكم ولائهم وخدمتهم، ولذا يحظون بالرعاية الرسمية والمقابل السخي ماديًا ومعنويًا.

الرواية المضادة تسقط في فخ المباشرة والدعاية والتدليس، فتفقد تأثيرها الفني، والإقناع الأدبي، ولكن الترويج الدعائي لها يخدع البسطاء، ويرسّب في أذهانهم أن الإسلام دين دموي ومخيف، وأتباعه ليسوا بشرًا؛ لأنهم يحرّمون الحياة على البشر، ويكفّرون الكتّاب والحكام ويمارسون القتل ويبتهجون به، بينما الواقع يشير إلى أن المسلمين هم ضحايا الاستبداد والوحشية الوثنية التي اعتنقت الحداثة لتتحلل من قيود الدين والضمير، وهي تعتدي على الشعوب الإسلامية الضعيفة وتنهب خيراتها وثرواتها.

ترى هل يتغير الكتّاب الدنيويون ويفيئون إلى الحق، ويقفون في صف الجموع الشعبية المضطهدة، ويعالجون الظواهر الطارئة معالجة شاملة من خلال البحث عن الأسباب، وطرح الحلول العملية، ويكفّون عن شيطنة الإسلام؟